تحيـــــة

مرفوعة الى صديقى الشاعر

محمود أبو الوفاء

بقلم الاستاذ فؤاد صروف

«الشاعر أشبه شيء بجدول منبجس من سفح جبل ، يتلألأ في الضوء ، ثم يختفي في الظل ، ثم يقفز فرحاً في الهوة ، ثم ينبثق منتصراً متدفقاً في الوادي ، ثم يبطيء في المروج دافقاً في صدره أشباح الآكام وظلال الاشجار والغيوم ، ثم يمر بباب الكوخ مؤثراً متهللا وهو سائر الى البحر العظيم ، ليغني فيه » .
(المجرسل)

فى قرية عند سفح الجبل ، نشأ بهى الطلعة ، ممتلىء الأعطاف ، متوقد الذكاء . كان شاباً ، وفى شبابه كان ساهراً ، يرعى النجوم ، ويسائل الحياة ، ويرى رؤى الكمال ؛ وكان راعياً يسير بالقطيع فى كل صباح إلى المروج ، فتسرح أفراده فى خمائلها ، ويستلقى هو على ظهره ، يستنشق شذا الروض الفواح ، أو يتأمل قطع السحاب الساعية فى القفار ، أو يصغى إلى خرير المياه الواردة إليه من جانب الوادى على أجنحة النسيم ، أو يحاكى تغريد الأطيار وزقزقتها ، وقد اتخذت من ذرى الأغصان عروشا .

كان يقضى نهاره فى دنيا من الرؤى والأحلام ، لأن فى صدره إلفاً من شعلة الشعر .

وكان أحياناً يسلى نفسه ، بانشاء مقطوعات يفيض بها شعوره من دون كد للذهن أو إجهاد للقريحة .

وفى ذات يوم مر به رجل عظيم ، فى سيارة فخمة ، فجلس إلى الراعى يحدثه آنا ويصغى إليه آنا آخر ، فحدثه عما فى المدينة من المبانى الفخمة والسيارات الرشيقة والغوانى الحسان ، والحركة التى لا تفتر والأنوار المتألقة التى لا تخبو ، وأصغى إليه ينشد بعض الأشعار التى نظم .

وقبيل انصرافه قال : هلم معى يا بنى إلى المدينة ، فآخذ بيدك إلى أعلى ذرى النجاح .

فلما انفرد الراعى ، بعد انصراف الزائر العظيم ، وخلا إلى نفسه ، ألقى فيها قلقا واضطراباً ؛ فحديث المدينة حفز خياله إلى تصور صور جديدة من الحياة — صور كانت على شدة إبهامها — كالعصا التى يسوق بها السائمة إلى المروج .

فلمعت عيناه واشتد خفقان قلبه .

***

طبع أشعاره فى ديوان فعاد عليه الديوان بكثير من الشهرة وقليل من المال، فاكتفى بهذا المال أولا ، لقضاء حاجاته ومطالبه القروية المحدودة؛ ولكن الشهرة سيد مستبد، والمشهور عبد ذليل ، فتنوعت مطالبه ، وتمددت حاجاته ، وازدحم حوله الأصحاب والأتباع.

وكان ذا شاعرية دقيقة الاحساس ، فرأى فى شؤون المجتمع موضوعات ، يستبدل بها فتون الطبيعة وسحر الحياة القروية، فأكب على النظم ، وقد أصبح شعره ذا سوق رائجة، فما كان ينظم قصيدة إلا ويرى بالباب من يطلب شراءها من دون مساومة، ولو شاء لمكنه ذيوع صيته من بيع كل ماينظمه، سواء آطمأنت إليه سجيته أم لم تطمئن ؛ ولكنه كان ضنينا أن يبتذل الشعر رغبة فى المال .

على أن الشهرة سيد مستبد، ومطالبها تقتضى بدرات المال سواء أكان مصدرها شعراً زائفا أو شعراً ملهما ، فامتنع عن كثير من ملاهى الحياة ومسراتها ، وانقطع لنظم الشعر ، حتى أنهك الجهد جسمه، وأضعف بصره فلزم الفراش تعبا وإعياء .

ولكن عمله كان بالغا حدود الاتقان ـ مع أن معظمه كان خاليا من الشعلة التى تتوهج بها أشعاره القروية ـ فاتسعت آفاق شهرته وبعدت مذاهب صيته.

ولكن ...

ولكن ... نفد صبره ، وثارت ثائرته فخلع عنه فى ثورة الروح على المادة ثياب المدنية ، ونفض غبارها وعاد إلى القرية الراقدة فى حضن الطبيعة ، عاد إلى رعى القطيع يسوقه صباحا إلى المروج، وعاد إلى الاستلقاء فى الظل الوارف يستنشق العبير الفواح، ويطرب إصغاء الى خرير الجدول وهدير الشلال ، وتغريد الطير .

وإذ هو مستلق فى الصباح التالى لعودته ـ أحس كأن ركزاً خفيا يقول:

ماأغرب مايفعله الناس ، وما أفدح مايبذلونه ثمناً لتصفيق الأيادى !

* * *

إن من نفذ إلى صميم روحك أيها الشاعر الكريم فى شعرك وحياتك ، أدرك بعقله ورأى بعينه ، أن الشهرة لن تستهويك فتستعبدك ، وأن المال لن يفتنك فيذلك ، وأنك حر ـ أى حر ـ إلا من قيود فنك العالى وشعرك الصادق .

إن من عرفك كما أعرفك أيها الشاعر الكريم، عرف أنك تستكثر وتستسخف أضأل ما يبذل ثمناً لتصفيق الأيادى.

* * *

القلم فى يدك أيها الشاعر الكريم ، والقلم إذا سألت الأستاذ قال لك: هو القيد الذى تقيد

(البقية على الصفحة رقم ١٣٣٩)